

الفكر الإصلاحى للشيخ الفضيل الورتيلاني

خديجة بلخير

جامعة ابن خلدون-تيارت

belkheirkhadidja@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2020/09/29 ؛ تاريخ القبول: 2021/05/27

The reform thought by Fodil el Ouortilani

Abstract:

This study deals with reformist method by Fodil el Ouortilani , who was credited Islamic Arabic mind ; he has not stopped his intellectual activity inside and outside Algeria, he was a representative of the Muslim scholars association , his revolution thought was reformist ,it aims at building and vigilance .

The importance of research lies in highlighting the thought of this thinker, that's almost non-existent, as well as enriching Algerian philosophical thought, we have concluded that his reform contributions have resonated greatly inside and outside Algerian, which enabled him to strengthen the nation's foreign relations what is his reform philosophy?

Keywords: Reform, education, vigilance, religion, language.

المخلص:

تتناول هذه الدراسة المنهج الإصلاحى لدى المفكر الجزائري الفضيل الورتيلاني الذي كان له الفضل في توعية وتنوير العقل العربى الإسلامى، بحيث لم يتوقف نشاطه الفكرى داخل الجزائر فقط بل شمل خارجها أيضا، وكان بذلك ممثلا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، إذ كان فكره ثورى إصلاحى يهدف إلى البناء والتوعية واليقظة.

تكمن أهمية البحث في تسليط الضوء على فكر هذا المفكر الذي تكاد تتعدى الدراسات حوله، وكذا إلى إثراء الفكر الفلسفي الجزائري، وتوصلنا إلى أن إسهاماته الإصلاحية كانت ذات صدى كبير داخل وخارج الجزائر، وهو الأمر الذي مكنه من تقوية العلاقات الخارجية للوطن، فما هي فلسفته الإصلاحية؟

الكلمات المفتاحية : الإصلاح، التربية، اليقظة، الدين، اللغة.

مقدمة:

الحديث عن الإصلاح في العالم العربي الإسلامي هو الحديث عن تلك البطولات التي عرفت مع كثير من الشخصيات المعروفة في المجال الفكري والسياسي، بحيث يكون الإصلاح حينما يوجد الفساد وتسوء الأحوال الدينية والاجتماعية والثقافية والسياسية في المجتمعات، أي هو حالة انتقال من الأسوأ إلى الأفضل.

إن حركات الإصلاح عرفت أولا بالمشرق العربي ثم انتقلت إلى المغرب بفضل ذلك الاحتكاك الذي حدث بين علمائها ومفكرها، ولقد قاد الحركة الإصلاحية بالجزائر عبد الحميد بن باديس الذي أسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فانضم إليها الكثيرون ليواصلوا المسيرة الفكرية العملية الباديسية، وكان من بين هؤلاء الفضيل الورتيلاني الذي عرف بنضاله الفكري والسياسي، حيث تصدى لسلطات الاحتلال الفرنسي وساند الثورة الجزائرية ودعا إلى ضرورة التحرر وكذا إلى البناء والتغيير، وإيقاظ المسلمين من خمولهم الحضاري، فنشأت فلسفته الإصلاحية من خلال التأمل في الأوضاع التي تمر بها الجزائر والعالم الإسلامي، محاولا البحث عن السبل والطرق للخروج من الأزمة، ولعل احتكاكه بالجمعية و ببعض العلماء ورحلاته المختلفة، زاد في تكوينه الفكري والثقافي، أما نضاله

السياسى فقد عرف مع الاحتلال الفرنسى، وكان بذلك ذا أثر فكرى
إصلاحى بالغ الأهمية فى العالم العربى الإسلامى.

بالنسبة للدراسات السابقة هناك بعض المقالات كتبت حوله مركزين
على الفكر الدعوى، ونشاطه فى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين،
كما تطرق آخرون إلى إصلاحاته، وخصصت بعض المذكرات لتناول
الشخصية من جانب تاريخى، فعرف كشخصية تاريخية أكثر من كونه
مفكر ورجل إصلاح، ولهذا نحاول فى مقالنا النظر إلى فكره
الإصلاحى كفلسفة تستدعى التأمل والتحليل، وإثارة التساؤلات كيف
ساهم الفضيل الورتيلاني فى تفعيل الحركة الإصلاحية فى الجزائر؟
وإلى أى مدى نجح مشروعه الإصلاحى فى العالم العربى الإسلامى؟
نتفرع عن هذه الإشكالية الرئيسية الفرضيات التالية:

- يعتبر الفضيل الورتيلاني من أعلام الفكر الفلسفى الجزائرى، وقد
ساهم إلى حد ما فى تربية السلوك والحياة الاجتماعية من خلال فلسفته
الإصلاحية.

- تجربة الإصلاح لدى الورتيلاني كانت داخل وخارج الجزائر.
ويهدف هذا البحث إلى الوقوف على هذه الشخصية الجزائرية التي
تكاد تتعدى حولها المراجع، بإثراء فكره الفلسفى الإصلاحى، وإلى
الإشارة إلى قيمة الفكر الجزائرى المعاصر، معتمدين فى ذلك على
المنهج التحليلى النقدي.

1-المرجعيات الفكرية للورتيلاني:(1900م/1959م):

يعد الفضيل الورتيلاني أحد رواد الإصلاح بالجزائر، وهو رجل ذو
فكر عُرف بنضاله السياسى والفكرى الطويل ضد الاستعمار الفرنسى
ولد " بقرية أئو المجاورة لبني ورتلان فى القبائل الصغرى عام
1900م، وينحدر من أسرة الرحالة المشهورة الشيخ الحسين
الورتيلاني صاحب الرحلة المشهورة المعروفة بالرحلة الورتلانية
التي حققها ونشرها العالم محمد بن أبى شنب فى مطلع هذا القرن"

(أبو عزيزيحي، 1995، ص: 176)، فنسبه ينحدر من أسرة شريفة ذات علم ودين ، حفظ القرآن الكريم وتعلم كل العلوم والمعارف التي كانت في عصره، فنشأ " نشأة الصبا والحدأة في أحضان الفطرة الطاهرة، وفي أحضان الجبال الشام، فاكسب من الأولى قوة الروح وصفاء العقيدة ، والصلابة في الدين، ومن الثانية قوة الجسم وثقافة التركيب وسلامة الحواس "(أبو عزيز يحيي، 1995، ص: 180) ممّا جعله عميق الفكر وجريء اللسان ينبذ الظلم ويدافع عن الحق فترعرعت فيه النخوة العربية الإسلامية .

إن المفكر الورتلاني قد لازم إمام النهضة عبد الحميد بن باديس لسنوات كثيرة، فتعلم عنه مبادئ الإصلاح وحرية الفكر والنقد فتحلى بروح قوية ونشاط دائم وكان يصاحبه في كثير من الاجتماعات والمناسبات حتى أصبح ممثلاً عنه، وذلك لما وصله من مكانة مرموقة في الفكر، حيث مارس نشاطه الفكري في مجلة الشهاب من خلال محاضراته التي كان يلقيها عبر القطر الجزائري واستمر على ذلك الحال حتى وفته المنية سنة 1956م، ومن أثاره الخالدة مجموعة من المقالات السياسية والأدبية والفكرية التي كانت منشورة في العديد من الصحف كجريدة منبر الشرق والدعوة والمنار والمعرفة وغيرها، وقد جمعت في كتاب بعنوان " الجزائر الثائرة ".

كان الفضيل الورتيلاني نموذج فريد للرجل المسلم القوي، الذي تصغر في عينه عظام الأمور وتهون أمامه كل الصعاب فلا يتهيب من اقتحام الميادين مهما عظمت التضحيات، ولا يتردد لحظة في مواجهة الباطل المنتفش(عقيل عبد الله، 2001، ص: 163) فهو شخصية معروفة بذكائه وسعة إطلاعه السياسي ومعارفه الدينية.

2-مقومات الفكر الإصلاحي لدى الورتلاني :

إن مسألة الإصلاح تقوم على فكرة التضاد (الفطرة ≠ التقليد) لذلك " نفهم لماذا ترتبط كل دعوة إصلاح إسلامية بدعوة أخرى

تطالب بالعودة إلى الاجتهاد، والاجتهاد هنا ليس معناه الانطلاق من معطيات مجتمع قد تغير فوجب إعادة تأسيسه بناء على أوضاعه الجديدة، ذلك لأن كل تغير يبتعد عن الإسلام الأصل يعتبر تقليداً أي تحريفاً، كذلك لا يعني الاجتهاد حرية الفكر والنقد مادام هناك نصوص أصلية هي المبدأ المطلق، ومادام الاجتهاد يكون فيما لم يرد فيه نص "(أومليل علي، 1985، ص:16)، ففكرة الإصلاح ترتبط بوجود الفساد في المجتمع الذي انتهى به الأمر على هذا الحال حينما ابتعد عن الإسلام الأصل، ولعل الإستعمار الفرنسي كان مخططه يصبو إلى ذلك، بمحاولة طمس الهوية الجزائرية وهنا يلعب دور الرجل المصلح في إعادة البناء والتأسيس، ويمكن تحديد معالم الإصلاح لديه من خلال هذه العناصر:

2-1- التربية والتعليم:

انتهج الفضيل الورتلاني منهجا مقلدا لأستاذه عبد الحميد بن باديس في مشروعه الإصلاحى، حيث ركز على مسألة التعليم والتربية وتكوين المرأة المسلمة دينيا واجتماعيا لتواجه مصاعب الحياة إلى جانب الرجل خصوصا بعدما عمل الاحتلال الفرنسي على تعريبها وتهميشها من وطنها، وجعلها تتأثر بالنموذج الحضاري الغربي وموقع المرأة الأوروبية فيه، وهذا الخطر بعينه الذي يمكن أن يمس المرأة المسلمة خاصة والمجتمع العربي عامة.

فالمفكر أو المصلح إن لم ينطلق من متطلبات الواقع الذي يعيش فيه، فإن أفكاره ستبقى مثالية مجردة، ولعل هذا الأمر كان مستبعدا لدى الفضيل الورتلاني الذي حمل همّ رسالته الإصلاحية في وقت مبكر، فالوضع السيئ الذي كان عليه المجتمع الجزائري خاصة والعالم العربي الإسلامي عامة هو الذي دفعه إلى التفكير في الإصلاح، ففلسفته الإصلاحية إذن تمثل نمطا من التفكير الراقى في

الإنسان والحياة والمجتمع، هي ضرب من المعرفة التي تمس جوانب مختلفة دينية، سياسة، اجتماعية، ثقافية وغيرها .

إن التكوين العلمي الذي تلقاه الفضيل الورتلاني كان كافيا لتحريك فيه الرغبة في التغيير، والتغيير يبدأ من الذات كما أشار إليه مالك بن نبي، بحيث يكمن بالتشبع من المعارف العلمية والدينية لتنعكس على الفعل الأخلاقي، وشهوات النفس وملذاتها لا تنتهي إن لم نضع لها حدا، فتغيير حال الإنسان من الأسوأ إلى الأفضل يسهل عملية تغيير المجتمع لأنه المحرك الأول للإصلاح والتغيير والبناء والتنمية .

لقد استفاد الفضيل الورتلاني كثيرا من تلك المجالس الفكرية التي كان يحضرها مع عبد الحميد بن باديس، هذا المفكر الجليل الذي جعل من أهداف التربية كمال الحياة الفردية والاجتماعية حيث قال : " إن كل ما نأخذه من الشريعة المطهرة علما وعملا فإننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال في حياتنا الفردية والاجتماعية، والمثال الكامل لذلك كله هو حياة محمد صلى الله عليه وسلم في سيرته الطيبة " (الطالبي عمار، 1997، ص: 104) .

فبناء الإنسان متوقف على الجانب الروحي والأخلاقي والنفسي والاجتماعي، يقول باديس " إن الكمال الإنساني متوقف على قوة العلم، وقوة الإرادة وقوة العمل، فهي أسس الخلق الكريم والسلوك الحميد ..وحياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها مبنية على هذه الأركان الثلاث: الإرادة والفكر والعمل، وهي بدورها متوقفة على ثلاثة أخرى لا بد للإنسان منها ، فالعمل متوقف على البدن، والفكر متوقف على العقل، والإرادة متوقفة على الخلق، فالتفكير الصحيح والإرادة القوية من الخلق المتين، والعمل المفيد من البدن السليم " (الطالبي عمار، 1997، ص: 104)، ففلسفته الإصلاحية مبنية على منطق سليم يجمع بين ثلاثة أركان موجودة في الإنسان، بحيث يعكس هذا البناء قوام المجتمع، فلم تكن التربية بالنسبة إليه مجرد علم نظري بل تجاوزت

إلى الجانب العملي، فلا علم بلا عمل ولا عمل بلا علم والهدف واحد هو خدمة الإنسانية، يقول عبد الحميد بن باديس : " إن خدمة الإنسانية في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها هو ما نقصده ونرمي إليه، ونعمل على تربيتنا وتربية من إلينا عليه " (الطالبي عمار، 1997، ص: 105).

سار الفضيل على منهج أستاذه، وذكائه وفطنته جعلته ملقنا للدروس في جمعية التربية والتعليم الإسلامية عام 1934، حيث بذل جهدا كبيرا في خدمة العلم والتعليم فمكّنه ذلك من نشر كثير من المقالات في مجلة الشهاب، هذه المجلة التي كان لها صدى كبير في التوعية ونشر العلم والمعرفة، وتصحيح عقائد الناس وأعمالهم، وإلى ضرورة البناء والتنمية .

وقد كتب عبد الحميد بن باديس مقالا في هذه المجلة معنونا بـ " ماذا علينا أن نبني " فقال : "أن أعظم البناء وأصعبه، وأبعده وأععبه بناء الأمم المتهدمة والشعوب الدائرة، وإنما تبني الأفراد بنفوسها وعقولها وقلوبها وسواعدها فلنعمل لتطهير تلك النفوس من رذائلها وتركيتها بمعالي الأخلاق ومكارمها، ولنعمل لتحرير تلك العقول من أوهامها، وتوسيع نطاق معلوماتها ودائرة تفكيرها ولنعمل لجمع تلك القلوب ولمّ شتاتها وطبعها على قلب رجل في المحبة والقوة والشجاعة والإخلاص نحو غايتها .. فإذا تطهرت تلك النفوس وتحررت تلك العقول، واتحدت تلك القلوب، كانت الأفراد فـا نبني صرح الأمة قويا متينا متقنا يضرب في التخوم وبناطح السحاب " (بن باديس عبد الحميد، 1928، ص: 08-09)، فالمقال تأكيد على بناء الفرد وإخراجه من دائرة الجهل والتخلف، وعلى اتحاد الأمة الواحدة لتحقيق النصر ودفع الظلم .

ويشير الفضيل الورتلاني إلى الدور الذي لعبته جمعية العلماء المسلمين في نشر العلم داخل وخارج الجزائر، ففي باريس وغيرها

من مدن فرنسا، أنشأت الجمعية للعمال الجزائريين " عشرات من النوادي وزودتها بطائفة من الوعاظ والمعلمين من رجالها، يتعلم فيها أولئك العملة ضروريات دينهم ودنياهم، ويتعلم فيها أبناءهم اللغة العربية تكلماً وكتابةً، ويتربون على الدين والوطنية..فقد أنقذت الجمعية عشرات الآلاف من أبناء الجزائر من الأمية" (الورتلاني الفضيل، 2009، ص: 195) هكذا كان دأب الجمعية والفضيل معا في نشر العلم ومحو الأمية، فرجالها صادقون في دعوتهم ومخلصون في فكرتهم، سعوا إلى تنظيم التعليم بإنشاء برنامج تتساير مع التطور، فهذا المعهد كما قال الورتلاني: "بات في نظر العالم الإسلامي والعربي، أحد معاهد الإسلام والعلم والتربية، بما يلقنه لأبنائه من علوم، وما يحاول أن يصبغه من فضائل الأخلاق، وما يريد أن يزودهم به، من صحيح العقيدة" (الورتلاني الفضيل، 2009 ص: 156) فالتعليم ضروري للبناء الحضاري، ولمواجهة كل الصعاب التي تواجه الفرد والمجتمع معا.

2-2-الدفاع عن الدين:

لم يخف تأثير علماء الأمة آنذاك على الورتلاني في طريقه الإصلاحى، فهو وإن كان نهج طريق أستاذه عبد الحميد بن باديس فقد كان أيضا شديد الاحتكاك برواد الإصلاح الذين كانوا يزرون الجزائر كمحمد عبده الذي قدم مجموعة من النصائح للجزائريين عند أول زيارة له سنة 1903، وكان من بينها: "-الجد في تحصيل العلوم الدينية والدنيوية من طرقها القريبة، ومسالمة الحكومة وترك الاشتغال بالسياسة" (بوباكير عبد العزيز ، 2017)، لأنه كان يرى السياسة مركب خطير، ولا يتحقق إصلاحها إلا بعد الإصلاح الديني والإصلاح الذي ينطلق من الدين أصح من ذلك المعتمد على منهج العقل والتقليد الأوروبي ، حيث يقول : " إن الغرض الذي يرمى إليه جميعهم إنما هو تصحيح الاعتقاد وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ في

فهم نصوص الدين، حتى إذا سلمت العقائد من البدع، تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب واستقامة أحوال الأفراد واستتضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية، دينية ودنيوية، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة وسرى الصلاح منهم إلى الأمة.. وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة به ما بيناه وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إمام لهم به فلم العدول عنه إلى غيره " (أمين أحمد ، ص: 331).

لقد كان محمد عبده كثير التركيز على الإصلاح الديني الذي هو برأيه النقطة الأولى في جميع الإصلاحات، بحيث كان يدعوا إلى ذلك في كل محاضراته وزياراته المختلفة للشعوب الإسلامية.

تحقيق النصر واسترجاع السيادة لا يكون إلا بالعلم والتربية والإصلاح السياسي لا يتحقق إلا بعد الإصلاح الديني وهو ما ركزت عليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وما حرص عليه الشيخ الفضيل الورتلاني خصوصا مع سياسة فرنسا التي كثفت جهودها لطمس وتشويه تعاليم الإسلام، وتحويل المساجد إلى كنائس ونشر سياسة التبشير، فكان لابد من إعادة الاعتبار وتصحيح تلك المفاهيم الخاطئة فقام الورتلاني بتطهير العقائد من نزعات الشرك وأباطيل الخرافات ومحاربة البدع، وضرورة الاهتداء بالكتاب والسنة.

فمن المعلوم يقول الورتلاني أن أقوى العواطف وأشدّها سلطانا في النفوس، هي عاطفة الدين ثمّ الجنس من أجل ذلك كان المستعمرون ولا يزالون يدخلون على ضحاياهم، لتشتيت شملهم من هذين البابين الواسعين باب الدين وباب العنصرية فلعله إذن يحسن أن تعرف ماذا صنع المستعمرون الفرنسيون في استغلال هذين الأمرين الخطيرين بالجزائر والمغرب العربي عامة (الورتلاني الفضيل 2009، ص: 69).

وموقف المستعمر الفرنسي من الإسلام كان أبشع بكثير، لأنه كان يراه عقبة كبيرة في طريق برنامجه الخبيث، يقول الورتلاني: "كانوا يرون أن اللغة العربية والقومية العربية، لا يمكن التأثير عليهما ما دام سلطان الإسلام على النفوس، ونفوذ تعاليمه على المجتمع قائما مسيطرا، لأن الجزائري يرى اللغة العربية في لغة الإسلام، التي لا يفهم الدين فهما سليما إلا بها، ولا تحفظ معانيه من الانحراف والتنشويه إلا بها، فهي إذن مفتاح الدين، وحارسه الأمين" (الورتلاني الفضيل، 2009، ص: 136-137) فالدين واللغة هما أساس هوية الشعب الجزائري، ولقد كان الفضل للإسلام في الجمع بين العرب والأمازيغ، والأمة الجزائرية موجودة منذ آلاف السنين قبل أن توجد فرنسا. فالدين وحده هو الذي يجمع الأمة أو يشنتها وهذا ما كانت تعيه فرنسا جيدا ففرضت على أغلب الزوايا باعتبارها مؤسسة دينية على تحفيظ القرآن دون تفسير أو فهم له خوفا من انقلاب ثوري يزعزع كيانها .

ويذكر الورتلاني أن فرنسا استعملت وسيلتين لهدم الإسلام: الأولى: فهي نشر الخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان وتشجيعها في الأوساط الإسلامية، واستعملوا في هذه الوسيلة كل أصناف الدجالين والمشعوذين، وفي مقدمتهم كثيرون من مشايخ الطرق الصوفية، الذين تحولت الرسالة عندهم إلى مهنة تجارية (الورتلاني الفضيل، 2009، ص: 137).

ورغم ما كان للزوايا من دور كبير للحفاظ على الهوية الوطنية إلا أن بعضها كان تحت ضغط سياسة الاستعمار الفرنسي ، فأدى بها إلى اعتناق بعض الطرق الضالة، فقامت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالتصدي لها وبمحاربتها بشتى الأساليب، بحيث مارس الورتلاني "دورا إيجابيا حينما اشتد الصراع بينهما فاستغل فكره الإصلاحى ودعا إلى الاهتمام بالتربية والتعليم لإعادة بناء العقول من

جديد، بعد أن أشاع الاستعمار الفرنسى والمناوئين معه من الطرفين لزرع التخلف والجهل، وقام بنشر الكثير من المقالات والبحوث التي عالج فيها قضايا اجتماعية وثقافية وإسلامية وسياسية " (علوان الشمري ثعبان حسب الله، ص:481).

أما الثانية: فهي نشر الإلحاد في أوساط الشباب الإسلامى، بواسطة المدارس وغيرها، الأمر الذي كان سيؤدي إلى انتشار الشيوعية بشكل مريع، وقد أنفق الاستعمار في هذا السبيل جهدا ومالا لا حد لهما (الورتلانى الفضيل، 2009، ص:138)، حتى وصل الأمر إلى تشكيك كبار المثقفين في إنكار وجود أمة حرة اسمها الجزائر، وهنا كان دور جمعية العلماء المسلمين في التصدي لهذه السياسة الاستعمارية، وزاد نشاط الورتلانى في مدرسة التربية والتعليم التي كان يدرس بها، فعمل على خرس الروح الوطنية للطلبة، وعلى ضرورة العلم لتنوير العقول وإخراجها من ظلمات الجهل والتخلف .

لقد حاول المستعمر الفرنسى تشويش عقول الجزائريين خصوصا فيما يتعلق بتاريخهم، هذا التاريخ الذي يشهد لحضارات عظيمة على أرضها كاقراطاج والرومان ونوميديا والحضارة العثمانية، فكان على الشيخ الورتلانى أن يوضح لطلبته هذا التاريخ العريق، ومدى كرامة الجزائريين في حقهم للحرية والعيش بسلام فأحيي فيهم حب الوطن ومقت الظلم ونصرة المغلوبين .

2-3-الدفاع عن اللغة:

كما كان من بين المسائل التي ركز عليها في مشروعه الإصلاحى اللغة كمقوم أساسى لأي حضارة من الأمم، ومرجع أساسى للهوية الوطنية، والحفاظ عليها يضمن التقدم والتطور لأنه لا خير في مجتمع يتبنى لغة ليست لغته ، فالتجرد من اللغة العربية واعتناق لغة الآخر، كلغة وطنية هو التبعية في حد ذاتها التي تؤدي إلى الضلال والهلاك، يقول الورتلانى في هذا الشأن : " إن اللغة مظهر مقدس من مظاهر

كرامة الأمة التي تحترم نفسها وعنوان من عناوين مجدها ووجودها ..وهي ليست لغة الجزائريين وحدهم وإنما هي لغة الأمة العربية كافة، وعنوان كرامتها ومجدها ، فمن أهانها إنما يهين العرب أجمعين " (الورتلاني الفضيل، 2009، ص: 96).

فقد كان الورتلاني على وعي تام بخط فرنسا في محاولة محيى اللغة العربية في الجزائر وجعلها لغة أجنبية، وحتى وإن كانت حاولت ذلك من خلال حذفها من المدارس وجعل اللغة الفرنسية مكانها وفرض عقاب على كل معلم يحاول تعليمها، ففتح " مدرسة لتعليم اللغة العربية في الجزائر، كان ولا يزال في نظر الفرنسيين، أخطر من فتح محششة يدار فيها الأفيون والكوكايين وبقية السموم، فلقد شهدت المحاكم في الجزائر مناظر مخجلة يساق فيها معلم العربية في موكب اللصوص والقتلة والمجرمين لمحاكمتهم على صعيد واحد " (الورتلاني الفضيل ، 2009، ص: 97).

التفاته الشيخ الفضيل الورتلاني إلى حال اللغة العربية في الجزائر هو محاولة لإيقاظ الشعور والانتماء الوطني، وإلى توحيد الأمة العربية، فاللغة هي مقوم للشخصية الجزائرية، ومقوم للدين الإسلامى فاللغة هي " الجسر الذي يصل أبناء الأمة بأسلافهم وبما تركوه من مجد وفكر، وهو الذي يربطهم بأبنائهم وأحفادهم في المستقبل ويعزز الروابط بين أفراد الأمة الواحدة " (سريى عبد الله فوزية ، 2018، ص: 22) والعربية هي لغة العلم تماما كبقية العلوم الأخرى ولم تكن يوما في نظر الورتلاني لغة متخلفة، بل لغة متطورة إذا أحسن استعمالها .

والتركيز على تطوير اللغة العربية كان همّ الكثيرين من المثقفين الجزائريين الذين شتوا ثورة التعريب ومن بينهم مولود قاسم نايت بلقاسم التي اعتبرها الحافظة للتراث والضامنة لاستمراره الروحي يقول مولود قاسم : "إن التاريخ يعلمنا أنه كلما وجدت أمة من الأمم إلا

وكانت لها لغتها الخاصة، وإن فقدانها لهذه اللغة يؤدي بها لا محالة إلى فقدان وعيها وإنيتها وذاتيتها، لأن المحتل يحرص دائما على فصل ضحاياه عن ماضيهم بقطع وسيلة الاتصال التي هي صدى أسلافهم، والقوة الطبيعية الحية لأمتهم إذن إن اللغة المكتوبة هي الاسمنت الذي يضمن تماسك الوحدة الوطنية، وهي العروة الوثقى التي تربط بين الأحياء، وتصل بالأموات ويكتب بها سجل الأمم " (نايت بلقاسم مولود قاسم ، 1991، ص: 379) فلم تكن اللغة بالنسبة إليه سوى ركن قويّ يمثل الهوية الجزائرية، والتجرد منها يعني اضمحلال شخصية الدولة مهما كانت قوتها .

ونفس الأمر بالنسبة لعبد الله شريط الذي هو الآخر نظر في ضرورة النهوض بقواعد اللغة العربية من أجل تجديدها والإبداع فيها يقول شريط : " المجتمع الذي لا يستطيع أن ينهض بلغة تحجرت قواعدها ولا بلغة أجنبية عنه برمتها، ولم يتفطن الطرفان إلى أنّ خلاصهما وخلاص مجتمعهما هو في أداء دور المثقف الحق، وهو التعاون على تغيير وتطوير لغة المجتمع الثقافية، وهي اللغة العربية وقواعدها، هذا التغيير الذي لا بد منه لينصهر فيه المجتمع، المثقف بالعربية والفرنسية والمجتمع، لأن هذا الانصهار تكتمل به الأداة الحضارية والفكرية التي لا بد منها في معركة الخروج من منطقة الخطر التي مازلنا نتخبط فيها ثقافيا وفكريا " (شريط عبد الله 1981، ص: 22)، فتورة التعريب التي شنها هؤلاء هي وسيلة لإخراج الأمة من ظلمات الجهل ، وهي تأكيد على أنها قضية وطنية بل " قضية إثبات ذات وتأكيد هوية للأمة المتميزة بحضارتها وبلغتها وثقافتها وبتاريخها وبطابعها المعنوي العام " (مومض أحمد نازلي 1986، ص: 193) .

فلم يختلف طرح الورتيلاني عنهما، فاللغة هي الوعاء للأمة ومقوم رئيسي للهوية الوطنية، وقد جعلها من استراتيجياته في منهجه

التغيري، فهي التيار الذي يبعث الروح في الكيان الجزائري، ولا يتم أي بناء حضاري دونها .

3- تجليات الفكر الإصلاحى الورتلاني خارج الجزائر :

نجاح أي حركة إصلاحية يتجسد في مدى فعاليتها وأثرها داخل وخارج البلد، فمع نجاح الحركات الإصلاحية في المشرق العربي واتساع نفوذها في المغرب العربي، كذلك استطاعت هي الأخرى أن تدلي بدلوها في المشرق من خلال الرحلات والاحتكاك بعلمائها كذلك المجالات التي كان لها دور فعال في نشر الوعي، والورتلاني قد شهد نشاطا في المجال الإعلامي بكتابته لمقالات متنوعة في مجلة الشهاب والبصائر، وجريدة الشريعة النبوية حيث كان يؤكد على التعليم وعلى ضرورة الاستقلال، ورفض معاملة فرنسا للجزائريين وكل ما كانت تمارسه من سياسة الإدماج والتجنيس .

لقد سافر الورتلاني عدة دويلات في إطار الحركة الإصلاحية ، من بينها أوربا التي كانت سنة 1936، حيث " تمّ تعيينه ممثلا لجمعية العلماء المسلمين بباريس(Boukroouh Nourddine; 2006; p.92) للقيام بنشر المبادئ الأساسية للجمعية وتعاليمها الإصلاحية واستطاع الورتلاني أن يوعي الجزائريين المقيمين بفرنسا بحال القضية الوطنية ومدى سياسة الظلم التي تمارسها فرنسا على أبنائها حيث فتح خمسة عشر ناديا من بينها: "جمعية نادي التهذيب في باريس" (Messouri, Mohamed; p.133) " يتردد على كل واحد منها آلاف من أبناء المسلمين يتلقون الدروس، ويسمعون المحاضرات، ويؤدون فروض العبادات، ويحيون تعاليم الإسلام وفضائل العروبة، ويكافحون الاستعمار " (الفضيل الورتلاني، 2009، ص: 472) لقد كان للفضيل أعظم جهاد في البلاد الأوربية حيث نشط في كثير من المراكز الدعوية الإسلامية، وكان دائم الاحتكاك بالجاليات العربية الإسلامية لإيصال صوت الجزائر في كل العالم.

لم يمض وقت طويل على حركته الإصلاحية في فرنسا حتى وضعت هذه الأخيرة حدا لنشاطه السياسي، فسافر حينها إلى مصر سنة 1940، وهناك أسس مكتبا لجمعية العلماء المسلمين وكان ممثلا لها، مما سهل له مهمته الإصلاحية للاتصال بالدول العربية المجاورة وطلب المساندة منهم بالاهتمام بالقضية، وكذا مد يد العون للطلبة الجزائريين المقيمين هناك .

و من أعماله الجليلة في المشرق العربي " انخراطه في كثير من المنظمات الإسلامية التي كان هو على صلة بها في تلك الفترة بالذات وكتاباته في أغلب الصحف والمجلات التي كانت تصدر آنذاك في مصر ولها طابع إسلامي عربي تحرري(الفضيل الورتلاني، 2009، ص: 40)، وكذلك صلاته المتينة برجال الإصلاح كجمال الدين عبد الناصر، ومحيي الدين الخطيب، ومحمد رشيد رضا وهدفه من ذلك " توثيق عرى الأخوة بين أبناء الوطن الواحد ومحاولة ربط الجزائريين بتيارات الفكر العربي المعاصر بعد أن ظلت الأبواب موصدة في وجوههم منذ ابتلائهم بالاستعمار والأمبريالية العالمية عبر العصور "(الفضيل الورتلاني، 2009، ص: 41) .

لقد استطاع الفضيل الورتلاني من خلال تواجده بمصر تأسيس بعض الهيئات والمنظمات السياسية التي ساهمت في التعريف بالقضية الوطنية، نذكر منها :

1-اللجنة العليا للدفاع عن الجزائر التي أسست بالقاهرة سنة 1942.

2-جمعية الجالية الجزائرية سنة 1942.

3-جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا والتي أسست سنة 1944.

وفي رحلته الحجازية يشيد الرحالة محمد الغسيري بشخصية الفضيل الورتلاني المجاهد المناضل الثائر بقوله: " وقد يحمل كذلك أن يعلم الجزائريون أن الرجل الذي مهد لأداء مهمة الأستاذ الرئيس في غير ما موطن، وفي غير ما وسط إنما هو الأستاذ الفاضل وابن الجزائر

البار، الفضيل الورتيلاني ذلكم الرجل الذي يمثل النبل والكرامة والشمم في أروع صورها" (حفناوي بعلي، 2018، ص: 523) وفي عام 1947 تم إرساله إلى اليمن بقصد تنشيط حركة المعارضة والإعداد لإدخال تعديلات في شكل الحكم عندما يتوفي الإمام يحيي، وتمكن الفضيل الورتيلاني بصفته قدم إلى اليمن لفتح شركة تجارية استثمارية أن ينتقل بحرية داخل البلاد وإلى الخارج مما جعله يشكل ضابط اتصال بين قوى المعارضة في الداخل والمعارضين في الخارج (العقاب عبد الوهاب، 2011، ص: 260) وقد نجح الفضيل الورتيلاني في مهمته الإصلاحية.

نشاطه السياسي بخارج الجزائر كان هو الآخر أكثر حيوية وامتدادا لمشروعه الإصلاحي، فالإصلاح عند هؤلاء لم يكن سوى رسالة إنسانية تسعى لنشر الأمن والسلام في العالم، وإلى استرجاع الحرية والسيادة الوطنية كحق من حقوق الإنسان.

ولعل هذه المهام من أصعب المهمات على عاتق أي رجل مصلح، وذلك لمعرفته العوائق والأخطار التي قد تعترضه في طريقه والورتيلاني قد شهدها، حيث أسر مرارا عديدة من طرف الحكومة الفرنسية، وحكم عليه بالإعدام حينما فشلت ثورة الدستور باليمن ورغم كل ذلك واصل نشاطه الإصلاحي في تستر بين الدول الأوربية إلى أن وفته المنية بعد صراع مع المرض في إحدى مستشفيات تركيا سنة 1959، تاركا بذلك إرثا فكريا خلد في التاريخ.

خاتمة :

الفضيل الورتيلاني من علماء الجزائر الذين كانت لهم وقفات مع الفكر والثقافة، والسياسة والدين عاش ثائرا بأفكاره التي لم تبق على مستوى التجريد، بل نزلت على ميدان العمل فحرر العقول من الجمود، وساهم في بناء الفرد والمجتمع ومحاربة الجهل والأمية

وبعض البدع و الخرافات التي آمن بها الكثيرون من الجزائريين، ولم تكن رسالته قومية بل كانت كونية لأن الهدف في ذلك هو الإنسان. من بين النتائج التي توصلنا إليها ما يلي:

1-لقد كان الفضيل الورتلاني مفكرا إسلاميا تنويريا يسعى إلى الوعي والتقدم والتجديد واليقظة والابتعاد عن الانغلاق والجهل.

2-فلسفته الإصلاحية جاءت كرد فعل عن الأوضاع التي عاشتها الجزائر في فترة الاستعمار الفرنسي.

3-لم يكن مشروعه الإصلاحى محليا، بل شمل دولا أخرى فكانت حركته عالمية.

4-نلمس في فكر الورتلاني البعد الفلسفي والطرح النهضوي الإصلاحى، ولهذا يعتبر من أعلام الفكر الفلسفي الجزائري المعاصر.

5-الإشارة إلى ضرورة الاهتمام بهذه الشخصية المغيبة في الساحة الثقافية الجزائرية.

6-محاولة الاقتداء بمنهجه الإصلاحى التغيري في وقتنا الراهن الذي يشهد اضطرابات سياسية واجتماعية ونفسية، وتذبذباً في الوازع الديني.

قائمة المصادر والمراجع:

- الطالبى عمار،(1997)، أثار ابن باديس، ط3، الجزائر، الشركة الجزائرية.

-العقاب عبد الوهاب، (2011)، مشروع الإسلام السياسى في التطور التاريخى والمعاصر، ط1، سوريا، دار رسلان.

- الفضيل الورتلاني،(2009)، الجزائر الثائرة، الجزائر، دار الهدى.

-أمين أحمد،د(ت)، زعماء الإصلاح في العصر الحديث،د(ط) بيروت، دار الكتاب العربى.

- أوميل علي، (1985)، الإصلاحية العربية والدولة الوطنية، ط1، بيروت، المركز الثقافى العربى.

- بن باديس عبد الحميد ،(1928)، ماذا علينا أن نبني، مجلة الشهاب دار الغرب الإسلامى، العدد 149، المجلد 4 .
- بوباكير عبد العزيز، (2017)، نصيحة محمد عبده للجزائريين، le Quotidien d'algerie.org.
- سرير عبد الله فوزية، (2018)، جهود عبد الحميد بن باديس في تعليم اللغة العربية، مقاربة لسانية حديثة، مجلة اللغة والاتصال العدد 22.
- شريط عبد الله، (1981)، من واقع الثقافة الجزائرية، ط2، الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- علوان الشمري ثعبان حسب الله، واجهات الفكر الدعوى الإصلاحى للشيخ الفضيل الورتيلاني، مجلة كلية التربية الأساسية ، العدد 82.
- مومض أحمد نازلي، (1986)، التعريب والقومية العربية في المغرب العربى، ط1، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية.
- مولود قاسم نايت بقاسم، (1991)، أصالية أم انفصالية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- Boukroouh Nourddine ;(2006) ;L'islam sans l'islamisme: vie et pensée de malek bennabi, chihab.
- Messouri Mohamed,(2020) ; Ibn Badis- quand la plume soumet les canons, Al bayyinah.

للإحالة على هذا المقال:

- خديجة بلخير، (2022)، « الفكر الإصلاحى للشيخ الفضيل الورتيلاني » . المواقف، المجلد: 18، العدد: 01، أوت 2022، ص.ص 860-877.